ان الناس لا يخافون من احد خوفهم من اللص الذي ينسلل الى بيوتهم في ظلمة الليل الحالكة . انه يثير في نفوسهم الوانا من الرعب والهلع . ولهذا ترى محاكم الجزاء عندنا تشدد العقوبة على من يسرق في الليل شيئا من دار مسكونة . وفي احدى المرات اصدرت محكمة الجزاء في بلدتي حكما يقضي بالحبس سنتين على لص سرق معطفا قديما باليا من دار كان يسكنها اذ ذاك ثري معروف يملك مئات الافدنة من الاراضي المزروعة . ولست ادري ما اذا كانت محاكم الجزاء في البلدان الاخرى تشدد العقوبة على لصوص الليل كما هي الحال عندنا ، فانى لا اقرأ الصحف والمجلات .

ولكن الناس الذين يخافون من لصوص هم اجبن خلق الله على وجه الارض . نعم ، اسألوني انا ! كنت قبل خمس سنوات عاطلا لا املك ما اسد به رمقي . كنت ابحث عن عمل في دأب ومثابرة ، ولكن الحظ لم يكن يسعفني بشيء . فماذا اعمل لاشبع جوعي ؟ (لو كان الجوع باختيار الانسان ما اخترت الجوع ، ولكنه مصيبة تنقض على الانسان على الرغم منه) . نعم ، ماذا اعمل لاشبع جوعي ؟ ؟ السرقة ! (لا تتعجبوا من كلامي هذا ، فان السرقة هي اشرف جريمة يرتكبها انسان مقبل على الموت جوعا . ودعوني اقول لكم بصراحة : اني اعرف اثرياء ـ لا اذكر اسماءهم ـ لا يتورعون عن سرقة الفقراء مع انهم غير مضطرين الى السرقة).

واخذت اسرق اشياء تافهة ، في وضح النهار ، تكفي لسد رمقي . ولكني لم انقطع في اثناء ذلك عن المحاولة في البحث عن عمل شريف . (العمل الشريف هو العمل الذي لا يدر شيئا من الربح ، كما اكد لي احد ممتهني السرقة) .

وفي ذات يوم ، وكنت واقفا امام مخزن اتحين الفرصة لاختطاف شيء يسد ثمن وجبة الغداء ، واذا صديقي عبد الحسن يقف امامي فجأة ويقول لي في ابتسامه خبيثة :

ـ ابحث عن مخزن آخر ، ايها الشاطر ، فان صاحب هذا المخزن يملك الف عين !

ونولاني حجل شديد . (وهذا طبيعي ، فان السرقة التافهة تخجل السارق ، اما السرقة الكبيرة فانها تفرض احترام الناس لها) وقلت له وانا احاول ان اخفي عليه خجلي :

ـ اني لا انوي سرقة المخزن برمته ، ولكن ... اترى تلك الفوطة التي تتدلى الى خارج المخزن وترفرف كالعلم ... انها تغري المرء باختطافها ! ولا تنس اني لم اتناول شيئا من الطعام منذ يوم امس.

وظهرت في وجه صديقي علائم الالم والشفقة ، فقد كان عليما بما يثير الجوع في نفس الانسان من الم وفزع ، اذ ان حاله لم تكن خيرا من حالي . (يجب التنبيه هنا الى ان الاحساس بالجوع مع الاطمئنان الى وجود الطعام يختلف اختلافا جوهريا عن الاحساس بالجوع مع انعدام الطعام . فالاول هو اقرب ما يكون الى الاحساس بلذة مرتقبة ، اما الثاني فهو شعور بالفزع من الموت) .

وقال صديقي في لهجة الجد :

ـ الى متى نبقى على هذه الحالة البائسة التي تنذرنا بالموت ؟ لماذا لا نستجمع ما عندنا من شجاعة ومكر ونحاول سرقة الاشياء الثمينة من بيوت الاثرياء في ظلمة الليل ؟ ان الظلام كفيل بان ييسر لنا مهمة السرقة.

واقول الحق، ان صديقي استطاع ان يقنعني بهذا المنطق الذي بدا لي سليما (ولا غرو ، فان المهدد بالموت جوعا يتقبل كل « منطق » يفتح له املا بالنجاة من الموت).

واخذنا نتشاور ونعد العدّد اللازمة ، وقد وقع اختيارنا على دار صغيرة ذات طابق واحد تقع في ركن من شارع ضيق لا تطاه الاقدام في الليل وكان ساكن الدار رجلا ضخم البنية مديد القامة على حظ كبير من الثراء وكانت اسرته قد رحلت قبل ايام قلائل وظل وحده في البيت . ولم يقع اختيارنا على هذه الدار لان ساكنها ثري ولانه وحيد ، فحسب ، بل لانه ممن يستغرقون في نوم عميق لا يوقظهم ضجيج مهما علا . (ليس ايسر على اللصوص من جمع معلومات كهذه) .

وبعد ان انتهينا من اعداد الخطة اخذنا نطوف في الشوارع منتظرين تقدم الليل وانقضاء الهزيع الاول منه ، حيث يأخذ الحراس بالاستسلام للنوم كعادتهم في مثل هذا الوقت .

واذ حلت ساعة العمل ، التقطنا العدد التي هيأناها لتنفيذ السرقة ، ومنها كيس صغير من اختراع صديقي ، قد حشاه بالقطن المضغوط ، يدسه في فم من يفتح فمه بالاستغاثة .

وما كدنا نقترب من الدار، في سكون الليل ، حتى اخذ قلبي يخفق خفقانا شديدا من الخوف الذي استولى علي . وتأملت في وجه صديقي فبدا لي كوجه الميت من حيث اصفراره وانعدام ملامح الحياة فيه . وبلغنا الدار وكانت غارقة في ظلام دامس ، واسرعنا الى عبور حاجز الحديقة الخشبي في خفة ملات نفسي زهوا ، ثم قبعنا في مكاننا لحظة نسترق السمع ، فلم يطرق سمعنا ما يدل على ان صاحب البيت يقظان ، فدنونا من الباب الرئيسي للدار واخذ صاحبي يحاول فتحه مستعينا بمجموعة من المفاتيح المتباينة شكلا وحجما . وانحنيت على صاحبي اتفرس في يده فوجدتها ترتعش ارتعاشا فظيعا حتى ما تكاد تستطيع ان تدخل المفتاح في ثقب الباب ، فوضعت يدي على كتفه اريد ان انحيه واعالج فتح الباب بنفسي ، ولكني فوجئت بصاحبي يطلق صرخة فزع ويلقي بنفسه الى الجهة اليمنى من الباب وينظر في هلع الى اليمين والى الشمال . ومن الطبيعي ان يستولي علي الفزع لهذه الحركة المفاجئة من صاحبي ، فرميت بنفسي الى جانبه وانا اسأله في صوت بدا ارتعاشه واضحا :

ـ عبد الحسن ! ماذا دهاك ؟

فاجاب في همس وهو يدير نظره في ارجاء الحديقة :

ـ الم تبصر احدا يدنو منا ؟

ـ كلا ، لم ابصر احدا .

ـ صه ! تكلم بصوت خافت ! لا شك في انه مختبىء الان بين اغصان تلك الشجرة !

ـ ولكن كيف ابصرته انت ؟

ـ لم ابصره . لقد اختفى في سرعة البرق !

ـ ولكن كيف شعرت به اذا لم تكن قد ابصرته ؟

ـ شعرت به يضع يده على كتفي !

ـ عبد الحسن ! اطمئن ! لا يوجد احد في الحديقة . وانا الذي وضعت يدي على كتفك !

ـ حقا ؟ ايها الطائش ! لا تلمس جسمي على غرة ! من حسن حظك اني لم اغرس خنجري في بطنك !

وعدنا الى الباب وانفاسنا تلهث من الفزع الذي اصابنا في غير موجب للفزع ، وتولى صاحبي مرة اخرى فتح الباب بيده المرتعشة حتى تم فتحه اخيرا ، فانتظرنا لحظة ثم دلفنا الى الداخل وانا احس بدمي يكاد ان يجمد من الرعب .

ووجدنا في الغرفة الاولى، وهي اقرب الغرف الى باب الدار ، ثلاجة كهربائية ضخمة ، ومغسلة كهربائية ايضا ، وجهازا ثالثا لم نعرف كنهه ، وادوات اخرى وكلها مما لا يمكن حمله. وخرجنا في خيبة امل ودخلنا الغرفة المجاورة فلم نر فيها غير كتب وجرائد ومجلات ، فاشار الي صاحبي بالخروج ، فاستدرت ابغي الخروج ولكن يدي اصطدمت بقنينة زجاجية (قنينة خمر على اغلب الظن) كانت مستقرة على طرف طاولة صغيرة ، فسقطت محدثة دويا عاليا . ويا لهول المنظر ! فقد قفز صاحبي قفزة واحدة واذا هو قابع تحت منضدة كبيرة كانت قائمة في الجانب الاخر من الغرفة !

واستولى علي رعب هائل فظيع ، واخذ جسمي يرتعش كما لم يرتعش يوما ، على الرغم من علمي بمصدر الدوي . واقبلت على صاحبي زاحفا على ركبتي وقلت له في همس :

ـ عبد الحسن !

ـ صه !

ـ عبد الحسن ! ان هذا الدوي الذي سمعته...

ـ طلقة ؟

ـ كلا ، اطمئن ! لقد سقطت قنينة على الارض فاحدثت هذا الدوي.

ـ من اسقط القنينة ؟ هل في الغرفة احد ؟

ـ كلا ، انا الذي اسقطتها !

ـ ايها الاحمق ! لا شك في ان رب البيت قد استيقظ الان من نومه !

ـ عبد الحسن! هل تسمع ..

ـ ماذا بعد ؟

ـ صفيرا ؟ صفيرا متقطعا ؟

ـ ايها البليد ! هذا صفير انفي ، فاني مصاب بالزكام !

وقبعنا في الغرفة فترة غير قصيرة ، فلما لم يطرق سمعنا ما يشير الى ان الدوي قد ايقظ رب البيت ، زحفنا نحو الباب نبغي الخروج من الغرفة،وقد بلغ الرعب بنا اقصاه .ولكن ما كدنا نصل الى باب الغرفة حتى ارتد صاحبي في حركة فجائية مفزعة ، وجذبني اليه نحو ركن الباب الايمن وهو يتمتم في صوت مرتعش : « رب البيت ! رب البيت ! »

وجمد الدم في شرايييني ! رب البيت ! هذا الوحش الضاري الذي يفض مضاجع اللصوص ويثير في نفوسهم افظع ألوان الرعب والفزع ! نعم ! ولكن الناس لا يعلمون !

وهمس صاحبي في اذني :

ـ لقد اوقعتنا في داهية ! ان الدوي قد ايقظ رب البيت !

ـ وهل تظن انه يملك مسدسا ؟

ـ طبعا ، ايها المأفون ! ان الاغنياء لا يتخلون عن السلاح !

ـ عبد الحسن! انك تفزعني بهذا الكلام !

ـ وما ذنبي انا؟ انظر من شق الباب الى النافذة الصغيرة المواجهة لهذه الغرفة ، هل تجد رب البيت لا يزال يطل منها ؟

ونظرت من شق الباب فرأيت رأس رب البيت قد استقر خلف النافذة يتربصنا وعدت الى صاحبي اندب حظنا والقي اللوم عليه فيما حبنا من هلاك محقق. وقبعنا في مكاننا ننتظر مقدم رب البيت وقد انهارت اعصابنا انهيارا تاما وفقدنا كل امل في النجاة من الموت .

واستندت الى جدار الغرفة ووضعت راسي بين يدي واستغرقت في تفكير مضطرب . وهل تصدقوني ؟ لقد مرت على ذهني ذكريات سعيدة ، ذكريات الطفولة والصبا !

واني لفي هذه الحال واذا بصري يقع على نافذة صغيرة في وسط الجدار المقابل لي ، وقد استقر على قاعدتها تمثال لرأس ادمي ، فأخذت أتأمله في غير اهتمام،ولكن ما كادت تمضي لحظات قلائل حتى طرقت ذهني فكرة اهتز لها كياني !واندفعت الى شق الباب وتفرست مليا .. وصدق حدسي !

وعدت الى صاحبي ، وكان اشبه بالجثة الهامدة ، وهمست في اذنه :

ـ عبد الحسن ! ان ما حسبناه راس رب البيت ...

ـ ماذا ؟ اختفى ؟ اذن فقد اقبل علينا بمسدسه !

ـ كلا ، انه ليس راس رب البيت ...

ـ ما هو اذن ؟

ـ تمثال !

واندفعنا صوب النافذة وقد عاد الينا بعض الشجاعة والاطمئنان ، ولكننا ما كدنا نقترب منها حتى فوجئنا بأمر غريب ! لم يكن في النافذة شيء!

بغداد — **ادكار سركيس المحامي**

قريبا :

النقابات العمالية

تاريخها ، اهميتها ، حقيقتها

تأليف

فلورنس بترسون

ترجمة

اميل خليل بيدس

من كتب المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر